الشـــريف الرضى
وخصائص شعره
للأستاذ عبد الرحمن شكرى

الشريف الرضى لا يضارع ابن الرومى فى تحليله المعنى وتقصيه إياه ، ذلك التقصى الذى ساعد ابن الرومى على إجادة الوصف سواء أكان وصفاً لهمسات النفس وخطراتها أو لأوجه الطبيعة والمرئيات. ولا يضارع الشريف أبا تمام فيما يتقنه من فلتات الصنعة النادرة التى تأتى بالأبيات الفذة الخالبة الآخذة بمجامع القلوب والتى تستهوى القلوب وتشعل الخيال . ولا يضارع الشريف المتنبى وأبا العلاء المعرى ، ولا سيما المعرى فى التفكير فى النفس والحياة ، وأخلاق الناس . ولكن للشريف نصيباً لا يستهان به من هذه الميزات ؛ وهو مع ذلك قد اختص بالشعر الوجدانى . ولهؤلاء الشعراء جميعاً ولغيرهم شعر وجدانى ، ولكنى أحسب أن الشريف بزهم جميعاً فى هذا الضرب من الشعر . وهو قد أمن ما يعتور ابن الرومى فى بعض الأحايين من الفتور بسبب ما قد يبدر منه من الإفراط فى التقصى والتحليل وتتبع الجزئيات ؛ وأمن الشريف زلل المبالغة فى الصنعة الذى قد يقع فيه أبو تمام إذا أفرط فى حبه للاختراع والتوليد وإتيان ما لم يأت به أحد من التشبيه أو غيره من صيغ الصنعة؛ وأمن الشريف المبالغة غير المقبولة والمغالاة كما فى بعض شعر المتنبى؛ وأمن أيضاً ما قد ترى فى ديوان سقط الزند للمعرى من مبالغات المتأخرين التى لا تعبر عن وجدان صادق. ولو قارنت بين شعر الشريف وشعر معاصريه لوجدت فرقاً كبيراً فى الأسلوب والذوق ، فإن الصنعة كانت قد انتشرت فى عصره وغالى الشعراء فيها من إبعاد فى التشبيه ومغالاة فى المعنى من غير سبيل دافق من العاطفة والوجدان يلبسها لباس صدق الإحساس ، ومن ألاعيب لفظية ومعنوية . وحسبك أن حكيم الشعر العربى المعرى التزم ما لا يلزم فى لزومياته مجاراة لصنعة عصره ، ويولع أحياناً بالجناس وغيره من المحسنات اللفظية التى لا تناسب ما هو فيه من التفكير والحكمة والجد . ولا عبرة بما يقوله بعض المطلعين على الشعر الأوربى من أن الشاعر العالمى الإنجليزى شكسبير يفعل ذلك ويغرى أحياناً بتلك الألاعيب اللفظية ، فإن شكسبير يفعل ذلك فى غير موضع الجد المؤثر ، وعلى لسان أناس من طوائف خاصة ، أولهم صفات خاصة . والشريف يترفع عن أساليب هذا التلاعب بالألفاظ . ولعل هذا هو ما ينبغى أن يكون ، لأن الشريف شاعر الوجدان ، والتلاعب بالألفاظ يتلف أثر الشعر الوجدانى فى النفس إذ لا يستقيم معه . وإن أطرب التلاعب باللفظ بعض الناس طرباً سطحياً إلا أنه ليس طرب الوجدان والعاطفة . وهذه الألاعيب اللفظية هى نزهة ولعب يلهو به الذكاء فى استنباطها واختراعها ومقارنة معانيها ؛ والذكاء من العقل، فلا غرو إذا قبله المعرى شاعر العقل لأنه كان سائداً فى عصره ، وإن كان هذا الهزل ضد جده . ولا عبرة بما يقول القائل من أنه أراد أن يلفت ببعثه هذا الناس عن حرية القول والفكر والعقيدة فى بعض شعره كما فعل رابليه الكاتب الفرنسى فى تغطيته نقده لعقائد رجال الدين فى قصصه بالعبث الصاخب ، وإن كان عبث رابليه مجوناً لا يطيقه المعرى . ولا عبرة بقول من يقول إن المعرى أحس من مرارة نفسه أن الحياة والخليقة وإن كانت مقدسة تدعو من أجل قداستها إلى مرارة النقد ، إلا أنها مهزلة أيضاً ؛ فهى مهزلة مقدسة كما سماها دانتى الشاعر الإيطالى ، ومن أجل أنها مهزلة أباح هزل الألاعيب اللفظية فى أثناء جد الفكر

ومن أجل أن الشريف شاعر الوجدان كان أقرب شعراء عصره إلى الأقدمين. وكان بدوى النزعة وإن كان قد أخذ بنصيب من الصنعة العباسية لإعظام أثر المناجاة أو النداء أو الاستفهام أو النفى الوجدانى فى شعره ، فانه يستخدم هذه الصيغ البيانية ويتعرف وسائل الصنعة فى تكرارها وموقعها . ولكنها صنعة طبيعية لا تحس أنها صنعة. وهى لا تنافس الوجدان بل تقوى أثره. وإذا قرأ القارئ له غزله أو رثاءه أو إخوانياته أو تحسره على انحسار الشباب أو مناجاته الديار ظهرت للقارئ آثار هذه الصيغ فى إشباع الوجدان وإقناعه ، فإن الشريف الرضى يشبع الوجدان ويقنعه ويطربه ويستميله بالنداء الوجدانى ، أو الاستفهام والسؤال ، أو النفى أو الإخبار بصيغة التحقيق والتأكيد ، أو الأمر أو المناجاة بأساليب أخرى.. ويفعل الشريف كل ذلك حتى ليخيل إلى القارئ أن لأدوات هذه الصيغ فى شعره معنى ليس لها فى شعر غيره؛ وهو

إذا رأى تلك الأدوات والحروف مثل (يا) أو (الهمزة) للاستفهام أو النداء أو (أين) أو (كيف) أو (لن) أو (قد) عرف أنه يجيد استخدامها لأغراض الشعر الوجداني أكثر من إجادة غيره استخدامها، ففي رثاء أحبابه وأودائه ينادي الدهر فيقول:

(يا) دهر رَشْقاً بكل نائبة
(قد) انتهى العتب وانقضى العجب
(رُدَّ) يدى ما استطعتَ عن أَرَبي (لَمْ) يبق لى بعد موتهم أرب

ففي هذين البيتين استخدم النداء والإخبار بالتحقيق والأمر والنفي كلها بصيغة وجدانية تؤثر في النفس. فهذه هي الصنعة اللفظية المحمودة لا الجناس والألاعيب اللفظية التي أولع بها معاصروه.

ويخاطب وينادي النظرة ويسأل مع النفي في قوله:

ذكرتكمُ ذكر الصبا بعد عهده قضى وطرا منه وليس بعائد
(يا) نظرة لا تملك العين أختها إلى الدار مِنْ رمل اللوى المتقاود
(أَمَا) فارق الأحباب قبلي مفارق ولا شيَّع الأظعان مثلي واجد؟

ففي هذه الأبيات استخدم الإخبار ثم النداء ثم الاستفهام المنفي، وهذه صيغ لفظية وصنعة لفظية لا يحسُّ القارئ أنها صنعة؛ وهي صنعة الطبع التي تُقْنع الوجدان، ويتفنن الشريف ويفتن في مناجاته ومناداته الوجدانية فينادي وقفة الأحباب فيقول: (يا وقفة بوراء الليل أعهدها الخ) وينادي بؤس القرب القصير من الأحباب الذي يعقبه الفراق الطويل فيقول:

فيا بؤس للقرب الذي لا تذوقه
سوى ساعة ثم الفراق مدى الدهر

وينادي نفسه ويشجعها على تحمل آلام الحياة ومتاعبها فيقول:

يا نفس لا تهلكي يأساً ولا تدعي
لَوْكَ الشكائم حتى ينقضي العُمُرُ

وينادي الشباب فيقول:

فمن يك ناسياً عهداً فاني لِعَهدِكَ يا شبابيَ غير ناسي
فإن العيش بعدك غير عيش وإن الناس بعدك غير ناس[1]

وينادي بؤس نفسه في الغزل فيقول:

يا بؤس مقتنص الغزال طماعة ذهب الغزال بلب ذاك القانص
كالدرة البيضاء حان ضياعها مِنْ بعد ما ملأت يمين الغائص
ما كان قربك غير برق لامع وكَلَى النهام به وظل قالص
أغدو على أمل كحبك زائد وأروح عن حظ كوصلك ناقص

وينادي الحبيب صاحب القلب الصحيح الخالي من الهوى فيقول:

يا صاحب القلب الصحيح أما اشتفى ألم الجوى من قلبيَ المصدوع

ولاحظ أنه لم يكتف بصيغة النداء في (يا) بل قرن إليها صيغة الاستفهام المنفي في قوله (أَمَا). وهي ألفاظ إذا جاءت في كتب النحو كانت ميتة، ولكنها هنا تثبت حياة كالسمك عند إخراجه من الماء. ويخاطب الشريف السرحة ويرمز بها إلى من يحب فيقول:

إسْلَمي يا سرحة الحـــي وإن كنت سحيقَهْ
أتمنَّى لك أن تبـــقَيْ على النأى وريقَهْ
ثمرٌ حَرَّمَ واشيـــكِ علينا أن نذوقَهْ

وينادي بالهمزة في قصيدته المطربة فيقول:

أمعيني على بلوغ الأماني وشفائي من غلتي واشتياقي

وينادي طائر البان في قصيدته المشهورة فيقول:

يا طائر البان غرِّيداً على فنن ما هاج نوحك لي يا طائر البان!
(هل أنت مُبْلغُ من هام الفؤاد به ... الخ)

فانظر إلى أثر (يا) و(ما) و(هل)، وإلى تلك الصنعة اللفظية التي تقنع الوجدان كل الإقناع. وقد يُقْنع الوجدان أيضاً بالمناجاة من غير أدوات النداء فيناجي الموطن والدار فيقول:

سكَنتُكِ والأيام بيضٌ كأنها من الطيب في أثوابنا تتقلَّبُ
ويُعجبُني منك النسيمُ إذا سَرَى
ألا كلُّ ما سَرَّى عن القلبِ مُعْجِبُ

ويقول:

كأنك قدمةَ الأمل المرجَّى علَيَّ وطلعة الفرج القريب

ويقول:

وأهجركم هجر الخلـــيِّ وأنتمُ أعزُّ على عينيَّ من طارق الكرى

ويقول:

وإني لأقوى ما أكون طماعةً إذا كذبت فيك المنى والمطامع

ويقول في قصيدة مطربة:

فإنْ لم تكن عندي كسمعي وناظري
فلا نظرت عيني ولا سمعت أذني

(١) أسقطنا أبياتا بين هذين البيتين وهي أبيات مطربة ولكننا أردنا الاختصار